خلفيات قرار وقف اطلاق النار

ودور جميع القوى والأطراف في المعركة وأسباب الانعطاف السياسي الخطير في مجراها

■ بقلم: الدكتور سامان بدر ■

منذ وقف اطلاق النار ، والجماهير العربية في كل مكان، تقف امام تساؤلات شديدة الحدة .. ماذا جرى ؟ وكيف ؟ وما الذي احتجز القتال العربي الباسل وقلب اتجاهاته ونتائجه السياسية راسا على عقب؟ ثم جاءت التطورات السياسية بعد وقف اطلاق النار لتزيد هذه الاسئلة حدة على حدة ، والحاحا على الحاح.

ولعل ابرز التناقضات التي تشد هذه الاسئلة الى بعضها وتزيد في حدتها هي :

● كيف يجري وقف اطلاق النار، دون ان يكون قد حدث خلل كبير في موازين قوى الصراع العسكرية ؟. وهل كان طلب وقف اطلاق النار متناقضا مع الخطة الاساسية للقتال (اشار الى هذه النقطة الرئيس الاسد في خطابه الاخير).

● وقف اطلاق النار ، حدث فيما المزيد من امكانيات وطاقات هذه الامة متدفقة على المعركة . ان على الجبهة العسكرية ، ام على جبهة تصاعد وزن ودور الحركة الجماهيرية .

● اذا كانت الولايات المتحدة قد كشفت عن موقفها كعدو رئيسي وصريح، واذا كان طلب وقف اطلاق النار ـ كما يقول هيكل ـ قد اتخذ بسبب تطور المواجهة الى مواجهة مع اميركا.. فكيف يمكن ان يتجه الرئيس السادات بكل خطابه نحو الولايات المتحدة .. ثم كيف يمكن تفسير عدم قطع حتى الحوار مع واشنطن، لا بل القيام بتجديده وارسال وزير الخارجية المصري بالوكالة ، الى واشنطن لتصعيد ذلك الحوار ؟

ثم بعد كل هذه الاسئلة والمتناقضات التي تحكمها ، ياتي السؤال الكبير : ماذا بعد ؟ او ما الذي سوف يحدث والى اين تتجه الامور والاوضاع في المنطقة برمتها ؟.

في كل القرائن والوقائع (التي اذيعت عن المعارك وحلفيائها (وما يذاع الان هو) اما لتبرير موقف حدث ، او لتحضير موقف سوف يحدث).. في كل تلك القرائن والوقائع ، لم توفر اجابات مقنعة وكافية عن الاسئلة المطروحة الامر الذي يبقي الجماهير في حالة بلبلة ، لا تقل خطورة في هذه المرحلة الحرجة ، عن الغياب القسري الذي فرض على الجماهير ابان المعارك.

واسهاما من « الهدف » في توضيح الصورة للجماهير ، ونقل ما يصلها من حقائق ومعلومات تجعل الجماهير على بينة بما يدور حولها وبما يحاك لها ، راينا ان نقدم للقراء التقرير الاخباري التحليلي التالي :

اولا ـ في التهيئة للحرب :

اصبح واضحا للجميع ان التحضير للقتال على الصعيد العسكري كان يجري منذ مدة غير قصيرة بين القيادتين السياسيتين والعسكريتين في سوريا ومصر .. وتقول بعض المصادر المطلعة ان الحديث عن قرار القتال قد جرى خلال زيارة الرفيق كريلنكو الى سوريا لحضور احتفالات سد الفرات في اوائل هذا الصيف . وكان ذلك في حوار بين الضيف السوفياتي وبين الرئيس الاسد ..

وقد ابلغ الرفيق كريلنكو ، الرئيس السوري ان موقف الاتحاد السوفياتي من هذا الموضوع يعتمد على ما يلي :

١ ـ ان قرار الحرب هو قرار عربي بحت . وان الاتحاد السوفياتي لا يتدخل في حرية تقرير ذلك .. لا سلبا ولا ايجابا ..

٢ ـ مع تاكيد المبدأ الاول يرى الاتحاد السوفياتي انه لم تستنفد بعد امكانات الوصول الى تسوية بالطرق والوسائل السلمية .

٣ ـ يحب الاتحاد السوفياتي ان يلفت نظر الاصدقاء الى بعض الامور التي يعتقد انه من المفيد اخذها بعين الاعتبار ، عند دراسة هذا الموضوع وهذه الامور هي :

ا ـ مدى استيعاب الجيشين السوري والمصري لما بين ايديهم من اسلحة متطورة .

ب ـ وكذلك مدى استيعاب العدو لما بين ايديه .

ج ـ دراسة الوضع الدولي المناسب، والاتحاد السوفياتي على عكس الكثير مما يكتب ويشاع في العالم، لا يرى في انفراج العلاقات السوفياتية الاميركية اضرارا بحركات التحرر الوطني ، بل على العكس ان ذلك يعطيها المزيد من الحرية.

د ـ ان الاتحاد السوفياتي سيدعم الاصدقاء العرب بكل تاكيد ، لكن هذا الدعم لا يصل الى حدود المجابهة المباشرة مع الولايات المتحدة .

هـ ـ عند التحضير للمعركة لا بد من تعبئة القوى الداخلية ، وحشد اوسع جبهة عربية مقاتلة .

اما وجهة نظر الرئيس الاسد فكانت كمايلي:

ا ـ ان امكانيات الوصول الى حل بالوسائل السلمية قد استنفدت تماما . وقد قدم الجانب العربي اقصى ما يمكن في هذا السبيل ، بينما اسرائيل تزداد تصلبا ويزداد موقفها استفزازا وعدوانية .

ب ـ اننا بناء على ذلك قررنا انه لا مناص من القتال .

بعد هذا الحوار تابعت سوريا ومصر استعداداتهما العسكرية بشكل مكثف ، لكن الملاحظ ان الجبهة الداخلية لم تعط مثل ذلك الجهد ، بل على العكس من ذلك كانت قوى بيروقراطية يمينية تزيد من مبادراتها التراجعية على الاصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الفكرية ، مما كان يزيد في تفريغ الجبهة الداخلية وبلبلة الجماهير وشل طاقاتها .

ثانيا ـ في خطة الحرب :

في مطلع تشرين دعا الرئيس الاسد القيادة المركزية للجبهة الوطنية في سوريا الى اجتماع ابلغهم فيه ان قرار الحرب قد اتخذ وان القتال بات وشيكا .. ودعا الى ذلك الاجتماع عددا من القادة العسكريين الذين تولوا شرح القرار والخطة والهدف من جانبها العسكري . فعرضوا ارقاما ومعلومات عن الجيشين السوري والمصري وكذلك عن الجيش الاسرائيلي وشرحوا بناء على ذلك خطة القتال التي تستند على انهم قادرون بالقوات المصرية والسورية وحدها ـ واية مشاركة عربية ستكون زيادة خير ـ على محاربة اسرائيل لمدة تتراوح بين ثلاثة اشهر وستة اشهر ، يتحقق خلالها بشكل مؤكد تحرير الارض المحتلة عام ١٩٦٧ ، اما بالوصول المباشر الى تلك الحدود، او بان يفرض تقل القتال وتواصله انهاك اسرائيل واجبارها على الانسحاب غير المشروط .

واوضح العسكريون خلال النقاش انهم يأخذون بالحسبان المساعدات العسكرية الاميركية ، كما انهم متفقون على عدم وقف اطلاق النار قبل تحقيق غرض القتال، حتى ولو صدر عن الهيئات الدولية .

وقد وافقت اللجنة المركزية بالاجماع على القرار وخطته وهدفه .

وفي نفس الوقت جرى اجتماع مع قيادة الخبراء السوفيات الموجودين في سوريا ، وابلغوا بقرار الحرب ، وخيروا بين البقاء او المغادرة ، مع التاكيد على انه لن تكون هناك اية انعكاسات سياسية لقرارهم . فاعربوا عن رغبتهم في البقاء مع تسفير عائلاتهم الى الاتحاد السوفياتي.

ثالثا ـ القتال :

وفعلا بدات الحرب في موعدها المقرر، وحقق الجيشان المصري والسوري نجاحا باهرا كانت له اثار كبيرة جدا على جميع الاصعدة ، فتم اجتياز قناة السويس واجتياح خط بارليف الحصين على الجبهة المصرية ، كما جرى اختراق خطوط وقف اطلاق النار على جميع قطاعات الجبهة السورية (جرى خرق معاد في القطاع الشمالي، فاستطاع لواء مدرع خلفي ، المسارعة الى مواجهته ، ثم تم سده نهائيا بجهد سوري ـ عراقي مشترك) .

التطور الايجابي الكبير الذي شدد من ثقل الجبهة السورية وعزز من صمودها ، كان مسارعة العراق الى المشاركة بشكل جدي ومنظم وفعال.

ومنذ اليوم الرابع للقتال بدات القوات الاسرائيلية برمي ثقلها الرئيسي على الجبهة السورية الحدودية والداخلية ، وقد استمر ذلك لمدة ستة ايام متواصلة ، الا ان صمود القوات السورية والعراقية واستبسالها على الصعيد العسكري ، وكذلك صمود الجماهير واندفاعها الوطني لتحمل التضحيات ، على الجبهة الداخلية، قد منع ذلك التركيز الاسرائيلي من تحقيق غرضه الملخص باحداث خلل ذي وزن استراتيجي على تلك الجبهة .. لا بل شرعت القوات العربية بتنفيذ هجوم ثان على كافة القطاعات .. ومن الجدير بالذكر انه اعطيت للقوة الاردنية التي جاءت الى سوريا ، اوامر بالاشتراك في ذلك الهجوم ، لكنها لم تنفذ ذلك .. فاستدعي قائد تلك القوة الى مقر قيادة العمليات السورية وسئل عن سبب تمنعه عن الاشتراك ، فبرر ذلك بانه لم يستطع فهم اوامر المهمة بوضوح .. فجرى اعطاؤه فرصة ١٢ ساعة للمشاركة او لمغادرة سوريا .. ومرت تلك المهلة دون ان تحدث المشاركة.. فاتصل الرئيس الاسد بالملك حسين وابلغه انه في حال عدم مشاركة القوة الاردنية ، فانه سوف يذيع ذلك فورا على جماهير الامة العربية .. وعند ذلك حضر الملك حسين الى مقر القوة الاردنية ، وبدات تلك القوة بعد ذلك القيام بمشاركة جزئية . اما القوة السعودية فلم تشترك ابدا .

في هذه الاثناء كانت تبرز ملاحظة سلبية اخرى على الجبهة المصرية ، فبعد ان قامت القوات المصرية ، وببسالة ودقة نادرتين ، لا بضاعيها غير نفاني الجنود المصريين واقتحامهم الموت بشجاعة ، بعد ان قامت بعبور قناة السويس واجتياح خط بارليف الحصين .. بدا يظهر نوع من الجمود على تلك الجبهة استمر عدة ايام ، وبشكل غير منسجم مع الخطة المشتركة المتفق عليها بين القيادتين السورية والمصرية .. ويقول خبراء عسكريون مطلعون ان هذا الجمود قد عطل امكانية احتلال ممرات سيناء بجهد الاندفاعة الاولى) .. وسلبية هذه الملاحظة ، تنبع من ان موضوع الجمود لم يكن ناجما عن وضع عسكري عميق ، بل على العكس كان الوضع العسكري المصري شديد القوة.. الامر الذي طرح التساؤل حول القرار السياسي!! الذي جمد هذه القوات حتى عن مشاغلة جهد رئيسي من قوات العدو لاضعاف ذروة هجومه على الجبهة الشمالية . لكن هذا التساؤل بقي محصورا في نطاق ضيق، ولم تذهب تفسيراته بعيدا ، حتى حدث وقف اطلاق النار ، فعاد البعض الى تلك الملاحظة واخذوا يجددون التساؤل حولها ؟

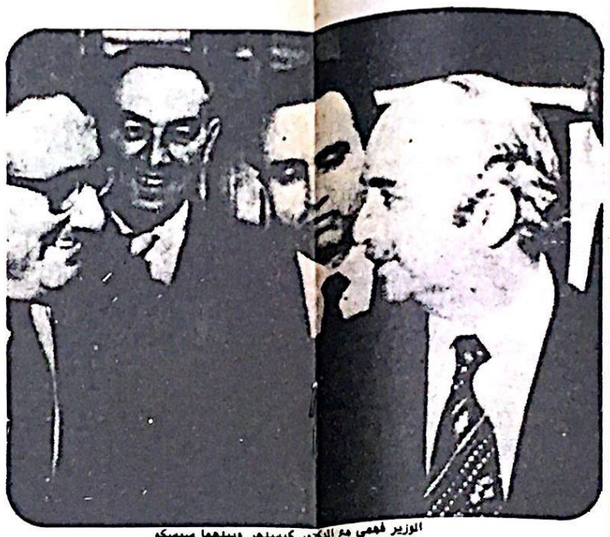

الوزير فهمي مع الدكتور كيسينجر وبينهما سيسكو

رابعا ـ وقف اطلاق النار :

عندما القى الرئيس حافظ الاسد خطابه (يوم الجمعة ١٢ تشرين) ، والذي كان منسجما فيه مع خطة المعركة وسيرها وتوجهها ، كان هناك توقع بان يكون خطاب الرئيس السادات في اليوم التالي مشابها له .. لكن المفاجاة الكبيرة الاولى في سير الحرب ، كانت في ذلك الخطاب الذي اختلف بشكل جوهري عن خطاب الاسد :

١ ـ عرض الرئيس السادات وقفا فوريا لاطلاق النار شرط الحصول على تعهد بالانسحاب الاسرائيلي .. مع ان الخطة ، كانت تنص ـ كما ذكرنا ـ على استبعاد الحديث عن وقف اطلاق النار .. وحتى على عدم قبوله في حال صدوره عن مجلس الامن قبل تحقيق غرض الحرب.

٢ ـ كان الخطاب بمجمله بشكل توجها نحو الولايات المتحدة الاميركية . في حين كان خطاب الاسد يشكل توجها نحو القوى المقاتلة اولا والجماهير العربية ثانيا .

٣ ـ اغفل الرئيس السادات مشاركة القوات العراقية ـ على عكس ما فعل الرئيس الاسد ـ في حين ركز على دور المصالح الاميركية في المنطقة (!!) .

بعد الخطاب حضر كوسيغين الى القاهرة .. وقد فهم المراقبون في سوريا مضمون تلك الزيارة، على ضوء المساعدات السوفياتية التي كانت ما تزال تتدفق على سوريا بشكل ومحتوى منسجم كليا مع خطة المعركة الطويلة .. ومع المحادثات التي دارت بين الرئيس بومدين والقادة السوفيات، وكذلك مع تجميد نشاط مجلس الامن طوال الايام الماضية .

ثم كانت زيارة كيسنجر الى موسكو والاتفاق على مشروع سوفياتي ـ اميركي لوقف اطلاق النار .

وتؤكد المصادر المطلعة في سوريا ، ما جاء في خطاب الرئيس ، حول ان القيادة السورية لم تكن تعلم حتى ذلك الوقت بوجود مساع لوقف اطلاق النار ..

وعندما اعلن نبأ الاتفاق السوفياتي ـ الاميركي، فوجئت القيادة السورية به ، للاسباب التالية:

١ ـ لم يكن الوضع العسكري على الجبهة السورية سيئا ، بل على العكس كان يتجه نحو التحسن ، وكان الهجوم السوري ـ العراقي الجديد في بدايته. كما ان وضع الجبهة الداخلية كان يتصاعد بسرعة شديدة .

٢ ـ لم تكن المعلومات ـ والتي تاكدت فيما بعد ـ تشير الى اي خلل عسكري كبير على الجبهة المصرية ، رغم العبور الاسرائيلي الى الضفة الغربية من القناة . فقد كانت القوات المصرية ما تزال سليمة ـ وهي كذلك حتى الان ـ كما ان قوات جزائرية هامة ، خاصة السلاح المدرع ، كانت قد بدات بالوصول الى مصر .

٣ ـ كانت المساعدات السوفياتية ـ كما اشرنا سابقا ـ تؤكد ان موقف موسكو ما يزال في اتجاه المعركة الطويلة .

فما هو سبب مساعي وقف اطلاق النار ؟

الجواب . كان في اجتماع اللجنة المركزية لقيادة الجبهة الوطنية التقدمية في سوريا . ففي ذلك الاجتماع تحدث الرئيس الاسد عن مشروع وقف اطلاق النار وعن ان المساعي للوصول اليه قد جرت دون اي اتصال مع سوريا.. سوى برقية من الرئيس السادات تقول :

« لقد تبين لي اننا اصبحنا نحارب الولايات المتحدة ، وانني كمسؤول امام قواتي المسلحة وشعبي وامتي والتاريخ، لا اقبل بمتابعة هكذا مواجهة .. لذلك فقد طلبت من القادة السوفيات بالحاح ان يسعوا في الهيئات الدولية للوصول الى وقف اطلاق النار » .

وبعد دراسة الاوضاع من كافة جوانبها، رجح في الاجتماع الراي الذي يقول بان قرار السادات، كان نابعا من وضع سياسي معين اكثر مما هو نابع من الوضع العسكري . وقد ارفض الاجتماع لاجراء الاتصالات الداخلية والعربية والدولية اللازمة .. ثم عقد الاجتماع الثاني في اليوم التالي وتقرر فيه قبول سوريا بوقف اطلاق النار المرتبط بفهمها المعلن لتفسير قرار مجلس الامن.

خامسا ـ موقف العراق :

ما ان صدر وقف اطلاق النار ، حتى اعلن العراق رفضه له . وقد لوحظ في نص البيان الذي صرح به الناطق الرسمي العراقي ، انه يلح على ضرورة اعلان حيثيات كل المواقف على الجماهير العربية .

ثم تبين فيما بعد ان لهذه الاشارة (الالحاح على اعلان الحيثيات) علاقة بالمحادثات السورية ـ العراقية حول قرار وقف اطلاق النار. وتقول المصادر المطلعة ان العراق اقترح في تلك المحادثات ان تقوم القوات السورية والعراقية بمتابعة القتال ، واوضح ان هذه القوات ما تزال قادرة على ذلك لوقت طويل . (مهما كانت انعكاسات ذلك على وضع القيادة السياسية للجبهة المصرية) .

كما اقترح ، في حال عدم القبول بمتابعة القتال ، ان تذيع سوريا تفاصيل وخلفيات كل ما جرى ، على الجماهير .. وان العراق بدون احد هذين الموقفين سيكون مضطرا لسحب قواته من سوريا .

هذه هي القرائن والوقائع والخلفيات التي وصلت « للهدف » من مصادر مطلعة . وهي ـ مع انها لا تجيب بشكل حاسم عن كل الاسئلة المطروحة ـ تشكل خلفية لمحاولة فهم النشاط السياسي الذي شكل سبب الانعطاف الدراماتيكي الذي حدث للقتال العربي واحتجز نتائجه ضمن قرار وقف اطلاق النار .

...

سادسا ـ محاولة لفهم الانعطاف السياسي :

● في الايام الاولى للمعركة وجه الرفيق ليونيد بريجنيف رسالة علنية للرئيس هواري بومدين يلح فيها على ضرورة مشاركة الاقطار العربية الاخرى ، ولا سيما الاقطار المتحررة ، في المعركة . وقد نشرت انباء صحفية عن رسائل مماثلة الى عدد اخر من الرؤساء العرب.

في ذلك الوقت فسر المراقبون في بيروت هذا الطلب على انه يلبي ضرورات سياسية اكثر الحاحا من الضرورات العسكرية .. وتلك الضرورات السياسية هي ان اشتراك العراق والجزائر مع سوريا ومصر يزيد من الثقل التقدمي في القيادة السياسية للقتال، ويضعف اي امكانية لتاثر جزء من تلك القيادة بمساومات ووساطات رجعية عربية بينها وبين الولايات المتحدة ، قد تؤدي الى تمييع المعركة .

● وفي احدى وثائقها الداخلية التي صدرت في الايام الاولى للمعركة حددت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مصدرين للخطر على المعركة العربية يتمثلان من غياب التعبئة الجماهيرية والجبهات الداخلية الثورية الصلبة .. وهذان الخطران هما :

١ ـ في غياب هذه الجبهة الداخلية الصلبة، قد تؤدي اية انتكاسة عسكرية جزئية على جبهة القتال ، الى ارتداد سياسي شديد الخطورة .

٢ ـ ان سيطرة القوى اليمينية في حركة التحرر العربي على حيز كبير من القيادة السياسية للمعركة ، قد يفسح المجال الى وساطات رجعية عربية بين ذلك اليمين وبين الولايات المتحدة عن طريق تقديم وعود بحلول ومشاريع حلول، تؤدي الى تمييع المعركة واعطاء الفرصة لاسرائيل كي تنتزع زمام المبادرة من يد الجانب العربي. كما حدث في الهدنة الاولى خلال حرب ١٩٤٨ .

على ضوء هاتين النظرتين المبكرتين الى المخاطر المحيطة بالمعركة ، يمكن البحث عن التحولات السياسية التي قادتها الى نهايتها المعروفة .

ان الذين عاشوا جو المعركة في سوريا ـ وكذلك في مصر ـ قد شهدوا تعاظم الدور الجماهيري خلال القتال وتناسبه طردا مع تواصل المعركة ، وشهدوا ايضا ان دور اقوى اليسارية داخل صفوف الجماهير كان يتعاظم بسرعة فائقة .. وان هذا الاتجاه الذي عززته الانتصارات العسكرية ، والاشتراك العراقي الجزائري، اخذ بدفع الامور للتطور الى ابعد من الحدود التي رسمتها القوى اليمينية ذات الوزن الكبير في القيادة السياسية للمعركة . تلك الحدود التي كانت تتضمن القتال من اجل تحريك ازمة الشرق الاوسط (احد المكاسب التي عددها الاعلام المصري بعد وقف اطلاق النار) للوصول الى حل سلمي بمعزل عن اي دور ثوري فاعل من قبل الجماهير وقواها الثورية .

فوزن التيار الجماهيري المتصاعد وثقل يسار حركة التحرر الوطني العربية في المعركة ، كان يهدد مواقع ذلك اليمين، كما ان استمرار المعركة وتعاظمها وتحولها الى حرب وطنية كبرى ، كان يهدد المصالح الاقتصادية البيروقراطية التي يستند عليها ذلك اليمين . الامر الذي جعل موقف اليمين محصورا ضمن نطاق **القتال الكافي للحصول على حل وغير الكافي لتصعيد الدور الجماهيري واليساري الى درجة الخطورة .**

وعلى اساس هذا التحديد يمكن فهم تجاهل الرئيس السادات لدور القوات العراقية والجزائرية، مع التركيز على ثقل واهمية المصالح الاميركية في المنطقة (التي هددتها قرارات فيصل وغيره من حكام النفط) .. كما يلاحظ دور الاعلام اليميني العربي في ذلك التجاهل (لم يسمح احد باغلاق اليمن الديمقراطية لباب المندب ـ على خطورة هذه الخطوة ـ في حين كان هناك الكثير من التطبيل والتزمير للمشاركات الرجعية الرمزية) .

في هذا الجو ، وامام وجود يمين القيادة السياسية للمعركة ضمن هذا المازق ، خرج السيد عمر السقاف وزير الدولة السعودي للشؤون الخارجية ، من اجتماعه مع كيسنجر، ليعلن ان الاجتماع كان ايجابيا ومثمرا (!!) .

وفي هذا الجو ، انقلب الموقف السعودي البترولي راسا على عقب ، فمن اصرار في مؤتمر وزراء النفط العرب في الكويت ، على الا تتعدى نسبة تخفيض الانتاج مقدار خمسة بالمئة ، الى الاعلان عن تخفيض عشرة بالمئة بعد يومين ، مع قطع النفط عن الولايات المتحدة ، والاعلان عن استمرار ذلك حتى تعود الاراضي المحتلة اي حتى نعم الحل !!

الى ماذا تشير هذه العلائم ؟

امام خطر ان يؤدي تطور القتال لنهوض جماهيري تقدمي عربي الامر الذي يهدد وجود وثقل اليمين في قيادة حركة التحرر العربي . ويهدد بالتالي وجود ومصالح القوى والانظمة الرجعية العربية ، ويهدد ايضا وجود ومصالح الامبريالية الاميركية .. تكونت مصلحة مشتركة لدى هذه الاطراف الثلاثة في الوصول الى صيغة موقف موحد لدرء هذا الخطر.. فحدث الوساطة السعودية بين يمين القيادة المصرية وبين الولايات المتحدة .. وجاء الوعد بالحل من واشنطن شرط العمل لوقف القتال وحصر التطورات التقدمية التي حدثت في داخله ، بالتركيز على دور الرجعية العربية النفطي لموازنة الدور اليساري والجماهيري القتالي .. وهكذا كان .. وذهب اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري بالوكالة الى واشنطن لمطالبتها بتنفيذ ذلك الوعد .

فهل سنجري الامور وفق هذا الاتجاه ؟؟

في الحقيقة ان هناك عوائق كبيرة ما تزال قائمة في وجه هذا الحل الموعود . وان وحدة القوى الوطنية والتقدمية وتمتينها وتصعيدها قادرة على ان تكون اداة احباط هذا المخطط. ومن المؤكد ان هذه الوحدة ، خاصة على صعيد حركة المقاومة ، سوف تتعرض لهجمة رجعية بالغة الحدة ، من اجل تمزيقها ومنعها من القيام بدورها ■■